نهر الكلب

دليل جديد الى آثاره القديمة

بقلم فؤاد افرام البستاني

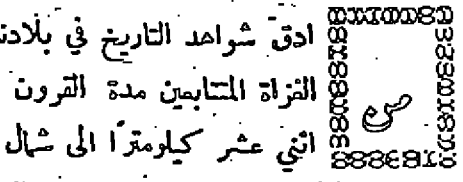

ادقّ شواهد التاريخ في بلادنا ، ومن ادلّ المعالم فيها على سير جيوش الغزاة المتتابعين مدة القرون العديدة ، ذاك الممرّ الضيق القائم على اثني عشر كيلومترًا الى شمال بيروت والمعروف بمرّ نهر الكلب.

عرف الاقدمون هذا النهر باسم « الذئب » (ليكوس Lycus ὁ Λύκος) كما دعاه اليونان اولًا وتبعهم الرومان على ذلك . اما العرب فاستبدلوا الكلب بالذئب ونسبوا اليه النهر كما نسبوا اليه ايضاً الرأس الصخري الذي حفر فيه النهر مجراه ، فقالوا « رأس الكلب ».

وكان من علوّ الصخور المرتفعة على ضفتي النهر الى ما يبلغ الثمانين مترًا ، ومن تلك المياه المتدفقة الصاخبة حاجزان طبيعيان يقطعان الطريق البحرية الواصلة بين آسية الغربية ومناطق افريقية ، فيصدّان المواصلات ويقفان بوجه المسافرين سواء أكانوا من صيادي الصور الظرّانية ، او من الفراعنة المتقدمين لقتال الحثيين ، او من ملوك اشور الهابطين للسيطرة على صور وصيدا ، او من جيوش قمبيسيان المسرعين لقمع ثورة اورشليم ، او من عساكر الحلفاء المنتصرين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٠ ، او من غير من تقدم ذكرهم من الغزاة والفاتحين الذين توقفوا كلهم امام هذا الممرّ الصعب ، فعملوا على قطعه ، وقطعوه . ثم توقفوا كلهم ايضاً ليخلّدوا ، على صخوره الصمّاء ، ذكرى انتصارهم على العقبات الطبيعية وذكرى بلوغهم الى ما قصدوا من البلاد.

وقد تتابعت القرون الكثيرة ، ودالت الدول المتوالية ، وتلاشت الشعوب

العديدة ، ولا تزال صخور نهر الكلب الصماء ، بما عليها من الرسوم المتنوعة الهيئات والرقم المتباينة اللغات ، شاهداً حياً على ممرّ تلك الجيوش ، ومشيراً دائماً الى النقطة التي كان يقف عندها مختلف الغزاة في طريقهم الى انحاء سورية ، مفرق القارات الثلاث ، وملتقى المدنيات القديمة . حتى ان من يجتاز ذاك الممرّ ، على اثر الفاتحين المتتابعين من اول عهد الانسانية حتى اليوم ، يشعر بعاطفة تأثر شديد تتملك عليه جوارحه وتنقله الى عصور بعيدة وتصورات غريبة فيودّ مخاطبة تلك الصخور والنفوذ الى اسرارها ، والتأمل بتلك الرسوم ومعرفة اصحابها ، وقراءة تلك الرقم وفكّ الغازها واحاجيها .

الى هذه الغاية رمى حضرة الاب رينه موترد اليسوعي في نشر دليله الجديد الانيق . فانه استعان بمعلوماته العديدة ، وبما جمعه حضرة الاب سبستيان روتزقال اليسوعي الاثري المعروف من وثائق متنوعة ، وبما كتب عن آثار النهر في مختلف اللغات ، فألف كتيباً لطيفاً زينه بالرسوم الواضحة والصور الممتازة ، وابرزه بمظهر طبعي فائق ، فاتى تحفة فنية واثراً علمياً نفيساً[1] .

وطّأ حضرة الاب موترد لدليله برسم اجمالي لضفتي نهر الكلب وما عليها من الآثار البالغة سبع عشرة لوحة ، وكلها على الضفة اليسرى ، ما عدا اثراً واحداً يرقى الى الملك بختنصر الثاني . وقد رُقّمت جميع اللوحات ، وأشير اليها في الرسم ، ثم شرحت اصولها في اسفله . وهذا الرسم الاجمالي مع الشروح الموجزة هو ما يراه المطالع في الصفحة التالية .

اما الدليل نفسه فيقسم الى ستة اقسام وثلاثة ملحقات .

خُصّ القسم الاول بوصف مجمل لموقع مصبّ النهر ومركزه المهمّ وما عليه من الآثار المختلفة المعروفة كلها باسم اللوحات او المسلّات (*Stèles*) وان كان بعضها يختلف عن البعض الآخر ، اذ انها تحتوي احياناً على رسوم واحياناً على رُقم المجدية او مسمارية او هيروغليفية .

---

(١) يحتوي الدليل على ٣٤ صفحة صغيرة مزيّنة برسم اجمالي و ٦ رسوم ضمن النصّ مع ٨ صور فتوغرافية خارج النصّ . وهذا عنوانه بالافرنسية :

René Mouterde s. j., Le Nahr el Kelb. *guide archéologique, orné de huit phototypies. Imprimerie Catholique, Beyrouth*, 1932

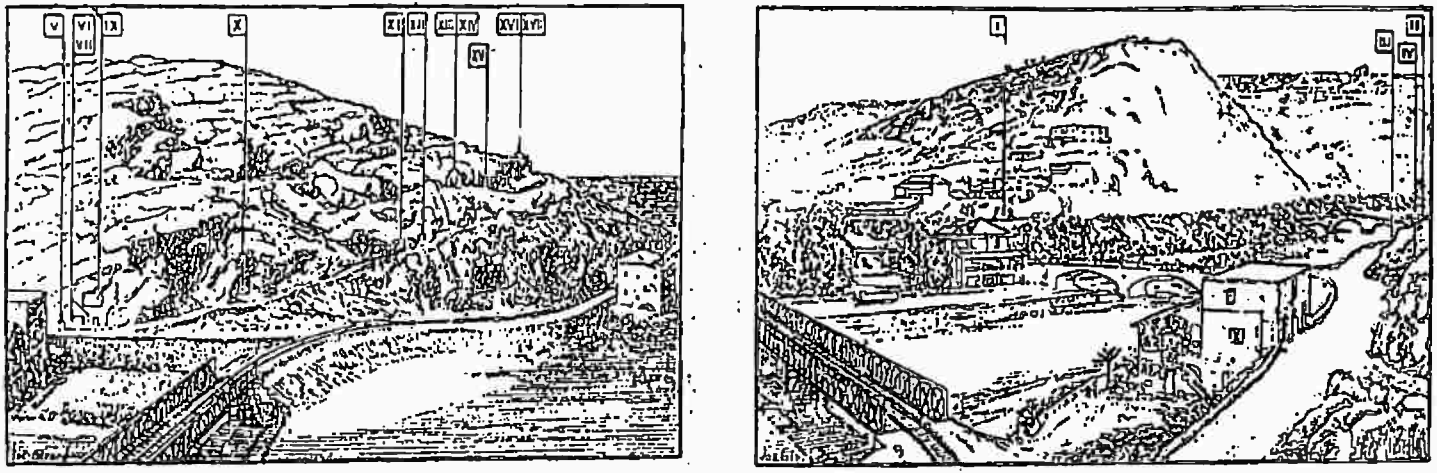

I بختنصّر الثاني
II السلطان برقوق
III كراكلاّ
IV غورو
V (رعمسيس الثاني) نابوليون الثالث
VII.VI ملكان اشوريان
VIII لوحة اشورية باندة
IX احتلال دمشق
X الاحتلال الانكليزي الفرنسوي
XI بروكلوس (الرقيم اليوناني الاول)
XII الرقيم اليوناني الثاني
XIII ملك اشوري
XIV رعمسيس الثاني
XV ملك اشوري
XVI رعمسيس الثاني
XVII أسرحادّون

رسم اجمالي لضفتي نهر الكلب وما عليهما من اللوحات الاثرية

وفي القسم الثاني وصف المؤلف الطريق الجميلة من بيروت الى نهر الكلب، خاصًا بالذكر ضفة النهر اليمنى المؤلفة من جبل شاهق ينحدر انحدارًا عموديًا. وليس على هذه الضفة الا اثر واحد هو رقيم مسماري يرقى الى عهد نبختنصر الثاني، ملك بابل من سنة ٦٠٦ الى سنة ٥٦٢ ق. م. وقد اكتُشف هذا الرقيم سنة ١٨٧٨. ثم فُكت رموزه فكان فحواه ان نبختنصر المذكور، وهو الذي كان ارميا النبي قد تنبأ عن غزواته وانتصاره على اليهود، يشير الى اعماله وآثاره في بلاد كلدو والى زحفه على لبنان. ويرقى الرقيم الى سنة ٥٨٧ او ٥٨٦ ق. م. هذا ما شرحه من قرأ الرقيم في القرن الماضي. اما اليوم فان الكتابة قد اضمحلت تقريباً ولم يبقَ بالامكان تمييز حروفها. على ان اللوحة لا تزال محفوظة بين الاشواك والاعشاب، تحت احدى قناطر القناة، على نحو مترين من المطحنة.

في القسم الثالث يبدأ ذكر الآثار الباقية، وكلها على الضفة اليسرى كما قدمنا، واولها، اعتبارًا من الجنوب الشرقي، رقيم لاتيني يرقى الى عهد الامبراطور الروماني كراكلا (٢١١-٢١٧ ب. م.) يذكر فيه ما قامت به من الاعمال في صخور نهر الكلب الفرقة الثالية الثالثة. ومما لا ريب فيه ان الطريق الرومانية كانت تمرّ امام هذا الاثر متجهة نحو الغرب موازية لمجرى النهر، حيث نرى جميع الرقم العصرية. اما اول هذه الرقم فاللوحة رقم IV التي تشير الى انتصار الجنرال غورو على عساكر الملك فيصل في خان ميسلون. ثم نرى لوحة نابوليون الثالث التي حُفرت سنة ١٨٦١ مكان اقدم رُقم رعمسيس الثاني، اشارة الى دخول العساكر الفرنسوية بلادنا سنة ١٨٦٠ بقيادة الجنرال دي بوفور دهوتپول، على اثر مذابح تلك السنة المشؤومة. وعلى عدة امتار نحو الجنوب رقيم آخر، باللغة الانكليزية، (على اللوحة رقم IX) كان يذكر احتلال العساكر الانكليزية مع رجال الملك حسين للمدن السورية سنة ١٩١٨. على ان تلك الكتابة كادت تمحى، فابدل بها سنة ١٩٣٠ كتابة اخرى اقرب الى الدقة التاريخية من الاولى. ثم على ٢٥ مترًا في اعلى الصخور كتابة انكليزية اخرى حُفرت مدة الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٨-١٩١٩.

واذا تابع الزائر سيره مارًا امام اللوحتين الاشوريتين يصل الى ما بقي من

الطريق الرومانية التي عُبّدت نحو سنة ٣٨٢ م.، عهد كان بروكلوس حاكم فينيقية. نعرف ذلك من رقيم يوناني تكاد كتابته تضمحلّ. امّا الرقيم اليوناني الثاني الكائن على نحو ٢٠ متراً من الاول (اللوحة XII) فلا يمكن ان يُستخرج منه شيء. وفي اعلى المرتفع، فوق البحر، صخر ابيض كان قاعدة لتمثال الذئب او الكلب على زعم اسطورة لخّصها المؤلف في القسم الرابع من كتابه، فلتراجع.

وقد خص القسم الخامس باللوحات المصرية والاشورية. عدد الاولى ثلاث ترقى كلها الى رعمسيس الثاني (القرن الثالث عشر ق.م.) وكلها تمثله امام احد الآلهة. الّا ان الاولى منها (اللوحة V) قد حُفر مكانها رقيم ناپوليون الثالث كما ذكرنا. فلا نعرفها اليوم الّا بالرسم الذي نقله عنها لپسيوس وهو المنشور ادناه.

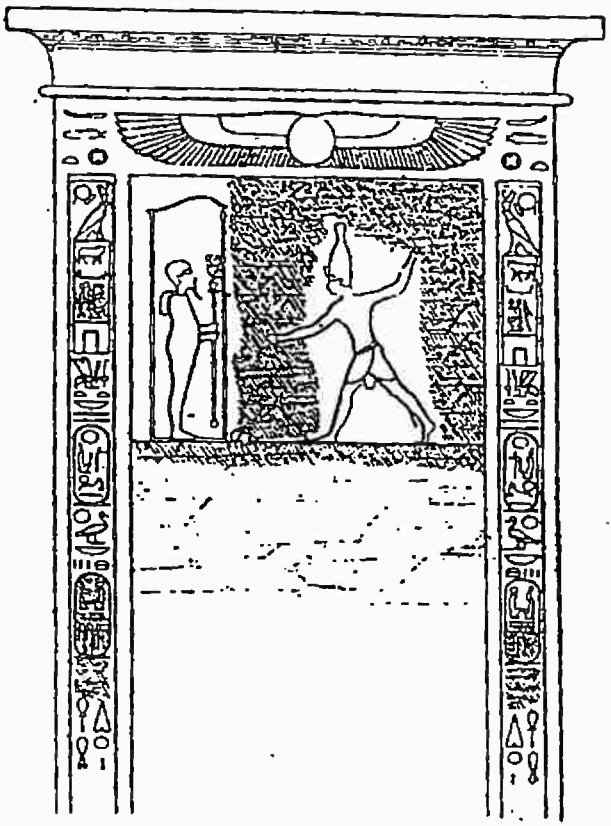

رسم الملك رعمسيس الثاني المصري (القرن الثالث عشر ق. م.)

رسم الملك اسرحادون الاشوري (القرن ٧ ق.م.) وامام رأسه رموز الهية

أمّا اللوحات الاشورية الباقية نخمس، تمثل كلها ملوكاً لم يعرف منهم بالتأكيد الّا الملك اسرحادون (اللوحة XVII) لابساً التاج المنتهي اعلاه بخروط صغير كان رمز الملكية الاشورية في ذاك العهد، ورافعاً بيده علامة العبادة. وقد جُعل امام وجهه عدد من الرموز الالهية تظهر في الرسم الآتي

وعلى جسم الملك وسائر اقسام الاثر كتابة مسمارية تُشير الى انتصار اسرحادون في زحفه على مصر سنة ٦٧١ ق.م.، واخضاعه اثنين وعشرين ملكاً، مع مدينتي صور وعسقلان. ثم هناك آراء مختلفة في شخصية الملوك الممثلين على سائر اللوحات منها ما يذكر الملك أسورناسيربال الثاني وابنه سلمناصر الثالث من القرن التاسع.

بقي القسم السادس من الكتاب، وقد خصّه المؤلف بذكر الآثار الظرّانية في نهر الكلب الدالة على سكنى الشعوب في العصور السابقة للتاريخ، وبوصف مغاور جميلة منبع النهر المذكور. ثم بكلمة عن الجسر العربي وعن الرقيم العربي البارز بحروف كبيرة في اللوحة II وهو يشير الى ان ابا العزائم اقبش، قائد السلطان برقوق المصري (١٣٨٢-١٣٩٩)، بنى الجسر المذكور.

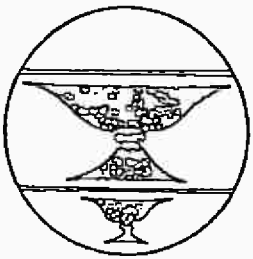

شعار الملك سيف الدين برقوق (١٣٨٢-١٣٩٩)

وفي اعلى الرقيم ثلاث دوائر تحتوي الوسطى منها على دعاء للملك الظاهر برقوق، والاثنتان على شعار الملك وهو مؤلف من كوبين كبير فصغير جعل الواحد منهما فوق الآخر، كما يظهر في الرسم

يلي ذلك ملحقات ثلاثة نُقلت في الاول منها نصوص الرقم المصرية وهي اربعة: رقيم الجنرال غورو، ورقيم نابوليون الثالث، ورقيما الاحتلال الانكليزي. واحتوى الثاني على بحث في كيف حفظت اللوحات المصرية.

وشاء حضرة الاب موتر ان يزيد في فائدة محبي الآثار فخص الملحق الثالث بذكر ما يمكنهم زيارته في بيروت وضواحيها كالمتحف اللبناني، وخرائب دير القلعة قرب بيت مري، والقناطر الرومانية في نهر بيروت وفي نهر ابراهيم وتُعرف كلها باسم قناطر زبيدة.

***

هذا ما امكننا تلخيصه عن ذاك الدليل النفيس الذي جمع الى الايجاز البليغ دقة الوصف وضبط المعلومات. فأدّى لتاريخ البلاد وآثارها خدمة جزيلة نرجو ان يقدرها ابناء البلاد حقّ قدرها بان يطالعوا الكتاب ويستفيدوا منه فهم آثارهم والمحافظة عليها.

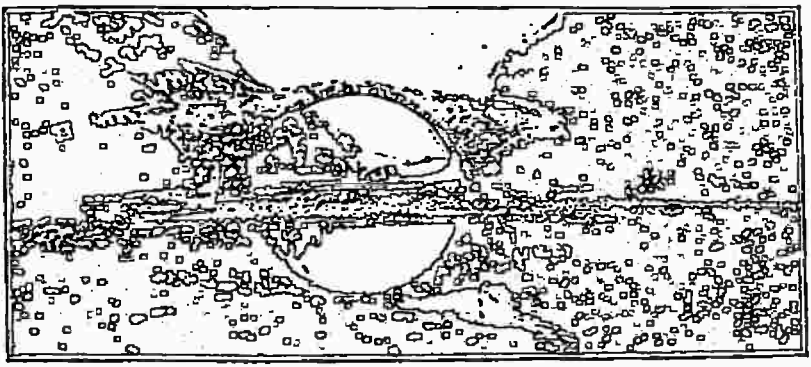

الجسر العربي على نهر الكلب